# احتفال في الساحة العامة

فـــاضل الســـبـــاعي ❖

قال صاحبُ البيت لضيوفه:

ـ إنْ لم يحصل تأخير، فإنّ «الاستعراض» يوشك أن يبدأ. ما أرجوه منكم، يا أصدقاءنا الأعزاء، ألاّ نتجمّع في هذه الشرفة وحدها، بل نتفرّق وراء نوافذ البيت كلّها، خشية حدوث مكروه لا سمح اللّه!

أجاب ضيفٌ، بدا فصيحَ اللسان، نيابةً عن الضيوف:

ـ ملاحظتك وجيهة جداً، يا مضيفنا الكريم. نحن نشكرك، أنت والسيدة الجليلة قرينتك، على ما تتجلّيان به من اللطف والأريحيّة، إذ قمتما بدعوة خمسين من أعزّ الأصدقاء، زوجَيْن زوجَيْن، إلى بيتكم الجميل، لتمكيننا من الإطلال على الساحة العامة ومشاهدةِ أطفالنا وهم يؤدّون الحركات الرياضية. نعترف بأنّنا عاجزون عن الشكر، يا سيدي.

ردّت ربّة البيت:

ـ هذا واجب، يا صديقنا العزيز، نقوم به كلّما جادت علينا الأيامُ باحتفال شائق يجري في الساحة تحت أبصارنا. أهلاً بكم في بيتكم في كلّ احتفال.

همست أمٌّ في أذن أمّ، وهما جالستان على أريكةٍ وثيرة جنبًا إلى جنب:

ـ صراحةً، لم أكن راضيةً عن مشاركة طفلي في هذا الاستعراض. إنّها أيام صعبة. ولكنّ زوجي راح يحدّثني عن أنّ «الرياضة» تعزّز ثقة الطفل بنفسه وتعوّده الانضباط، وأكّد لي أنّ إسهام الأطفال في هذه المناسبات العامة يُعَدّ واجبًا وطنياً و...

تدخّل شيخٌ طاعن يجلس على مقربة، يقول:

ـ في الحقيقة، هذه أيامٌ تثير الخوف. إنّ مدير المدرسة، صديقي، ولا أشكّ في أنّه جالس الآن في إحدى الشرفات المطلّة على الساحة، هو الذي أغرى حفيدي، الذي فقد أباه في حادثٍ مؤسف، بأن يشارك في هذا الاحتفال الرياضي، وما استطعنا ثَنْيه عن عزمه أو تجاهل رغبته.

أعلنت امرأةٌ نَصَفٌ:

ـ أنا ليس لي ابنٌ ولا حفيد. ولكنّي جئت هنا لأستمتع بمشاهدة أولادنا وهم يتأهّلون للدفاع عن الوطن.

من أقصى الشرفة هناك، هلّل رجلٌ، بدا أنّه حديدُ البصر:

ـ هلا هلا! هوذاك موكب «الفتى الوسيم،» حفيد زعيمنا الأوحد، يَلُوح من بعيد. لسوف أشاهد ولديّ وهما يمشيان المشية العسكرية.

❖ ❖ ❖

أدّت الموسيقى التحيّة للحفيد، الذي دَخَلَ موكبُه الساحةَ وسط جموع تحيط به. وفي داخل البيت، هتف، في الشرفة، رجلٌ ذو صوتٍ جَهْوَريّ:

ـ كَفٌّ، يا جماعة! صفّقوا للحفيد، الغالي على قلب زعيمنا الأعظم وعلى قلوب المواطنين.

فاستجاب الضيوف مصفّقين.

وما إنْ سكتت الموسيقا، حتى علت أصواتُ الشبّان في الساحة يُنشدون:

| | |
|---|---|
| يا حــفــيــدَ العُظَمــا | ذُخْــــــرَنـا يـومَ المِحَـنْ |
| دمـتَ لـلـدهـرِ، ومــــــا | غـــيــــرُكم يبنـي الوطنْ! |

❖ ـ كاتب من سورية. والقصة هي ضمن مجموعة قيد الإعداد بعنوان: **تقول الحكاية**. وقد أجازتْ نشرَها الرقابةُ السوريةُ، وضمِنْتها هذه القصة. فاقتضى التنويه! (الآداب)

وقام خطيبٌ، وراء مكبِّر الصوت، يرحِّب بالحفيد، ابنِ السابعة عشرة، الذي كانوا قد عهدوا إليه بـ «شؤون الشباب.» فقوطع خطابُه غيرَ مرةٍ بالتصفيق والهتاف:

بـــالـــروحْ.. بـــالـــدمْ　　نَفْـــديكَ يا حـــفـــيـــدْ

برمـــــــــوشْ.. الـعـينْ　　نَحـــمـــيكَ يا مـــجـــيـــدْ!

وهَزَجَ آخرون هناك:

نحْنـا لـهـــا، نحْنـا لـهـــا　　روسَ الـعِـــدا نذلُّهـــــا

وإنْ كـــانْ مـــانْهـــا تنحني　　نكسّـــرها، ونحْـــتَلُّهـــا!

وانهمرتْ، بعدها، طلقاتُ الرصاص تملأ الفضاء. فغمغم رجلٌ، يقف في الشرفة في آخر الصفوف: «إنّهم لا يطلقون النار إلاّ في أفراحهم وأعراسهم...» وتابع وهو يتلفّت حواليه: «وعلى صدور الشعب أيضًا، وليس هناك حالةٌ ثالثة.»

❖ ❖ ❖

بدأ الاستعراض. صدحت الموسيقى. وأخذت مواكبُ الأطفال تدخل الساحةَ، وهم يرتدون اللباسَ الموحّد، ويمشون المشية العسكرية تحت الرايات المرفوعة. وظلّوا يتدفّقون على الساحة حتى امتلأت بهم.

في البيت، اتّخذ كلٌّ من الضيوف موقعًا يُطلّ منه على الساحة الكبرى. والمضيف وزوجته يتنقّلان من غرفةٍ إلى أخرى، يتفقّدان الضيوف وهم وراء النوفذ، ليتأكّدا من أنّ كلّ شيء على ما يرام.

أعلن حديدُ البصر، وهو في الشرفة، متباهيًا:

ـ هو ذاك الأصغر من ولديّ. عيني لا تخطئه من بين ألوف الأولاد.

هتفت أمٌّ من وراء نافذة:

ـ آه، وهذا ولدي الحبيب، يرفع بيديه رايةَ الوطن. للّه ما أجمله! ما أجملها!

فجأةً... أزّت في السماء طلقةٌ، يبدو أنّها طائشة، تلتْها رشّةٌ من بندقيةٍ رعناء... وكفّت الموسيقا عن الصُداح.

قال الفصيح بصوتٍ يرتجف:

ـ يقينًا، هذا ليس ترحيبًا بالحفيد!

ساد المنصّةَ هَرْجٌ ومَرْج.

قال حديدُ البصر:

ـ يا إلهي! يبدو أنّهم حاولوا اغتيالَ الحفيد!

فسَرَتْ في الأجساد رعشةٌ استقرّت في النفوس.

وانهمر زخُّ الرصاص. قال حديدُ البصر:

ـ أظنّ أنّهم تمكّنوا من قتلِ مُطْلق النار!

بعد ذلك أخذ الرصاصُ يرتشق في كلّ اتّجاه.. والذين كانوا قد أطلقوه في الفضاء قبل دقائق ابتهاجًا، عادوا يطلقونه انتقامًا. والجمهور أخذ في الفرار من الساحة.

في البيت، انسحب الضيوف ـ عدا الذين اشتدّ بهم الفُضُول ـ من مطلاّتهم، ليحتموا في الغُرفات وراء الجدران. ولكنّ أمهاتٍ رفضنَ أن يتراجعنَ وعيونهنّ مشدودةٌ هناك تبحث عن فلذات الأكباد. بعضهنّ وَلْوَلْنَ بصمت، وبعضُ سقطنَ مغشيّاً عليهنّ.

صرختْ أمّ:

ـ ولدي يسقط والرايةُ في يده!

وتأوّه الجدّ:

ـ آه! حفيدي، الذي فقدنا منذ قريبٍ أباه!

ومن ساحة الاحتفال، التي تناثرتْ فيها الجُثث بغمضة عين، وَرَدَ هتافٌ صاعق اخترق الأسماعَ:

مـــؤامـــرَهْ، مـــؤامـــرَهْ  دنيـــئـــةٌ مُـــدَبَّرَهْ

وكـــلُّ مَـــن وراءهـــا  لا يســـتـــحقُّ المغـــفـــرهْ!

ولحق به هتافٌ آخر:

قَـــتَـــلَهْ، سَـــفَـــلَهْ  ســـفّـــاكينْ الدَّمْ

راحْ يْـعُـــومـــوا  بْحـــمّـــامـــاتْ الدَّمْ!

ثمّ... لم يُسمع، في الساحة، إلاّ رشقاتُ رصاص. وفي البيت يُسمع عويلٌ وبكاء ونحيبٌ مكتوم، ودعواتٌ صالحات وغير صالحات.

❖ ❖ ❖

فجأةً، طُرق الباب. قدمٌ ثقيلة، أو جسمٌ صُلب، يَخْبط خبطًا لا هوادة فيه. خفتت الأنّاتُ وانقطعت الأنفاسُ. تجمّعوا. أقربهم إلى الباب استحيا أن يُحجم عن فتحه، فلما فتحه اندفع رجلٌ شاهرًا بندقيّته:

ـ أنتم هنا؟!

لم يجرؤ أحد على الكلام. خُيِّل إليهم أنّ هذا المقتحِم جاء ليُصفّي حسابًا معهم، جزاءَ ما اقتُرف في الساحة بحقّ الفتى الوسيم... زاد في إحساسهم بذلك أنّ النوافذ المفتوحة كانت تحمل إلى أسماعهم:

دَمْ، دَمْ، دَمْ  اضـــربْ ولا تـهـــتَمّ

رصـــــاصْ زيّ المطرْ  أشـــلاءْ مـــا تلْتَمّ!

ولكنّ الفصيح تجرّأ، فتقدّم وهو يكسو وجهَه ببسمةٍ مغتصَبة:

ـ أهلاً وسهلاً، بالأخ المناضل. أجل، نحن هنا بدعوة من صديقنا صاحبِ البيت وزوجتِه، لنشاهد بأمّ أعيننا فلذاتِ أكبادنا، وهم يشاركون في هذا الاستعراض الوطني تحت الرايات المرفوعة.

تفرّس فيه العسكري:

ـ وتشاهدون، بأمّ أعينكم أيضًا، إطلاقَ النار على حفيد الزعيم الأوحد!

بادر الفصيح يقول:

ـ إنّها لَيدٌ أثيمة، يستحقّ صاحبُها القتلَ والتقطيعَ، والحرقَ أيضًا، على ما اقترف من ذنب عظيم.

ـ أراك مُفَوَّهًا، أيُّها الرجل! مَنْ منكم صاحب البيت؟

وبخطواتٍ مشلول، تقدّم المضيف وإلى يمينه زوجتُه متعلِّقةً بذراعه:

ـ أأ... أنا.. صاحب البيت... يا سيِّدي.

ـ تريدون أن تدّعوا أنّكم أبرياء، أو أنكم غير شامتين! طيِّب، فلتقفْ، أيُّها المضيف، أمام مدعُوِّيك خطيبًا، وحدِّثْهم، بطلاقة، عن بشاعة الشَغَب والتمرّد والإرهاب، وعن فظاعةِ ما ارتُكب الآن من محاولة اغتيال حفيد الزعيم الأعظم. وبرِّرْ، بمنطق أريده مُقْنعًا، ردّةَ الفعل الفوريّة التي صدرتْ عن رجالنا تجاه المتمرِّدين الخونة وآبائهم وأبنائهم وأحفادهم. ولتعلمْ أنّك، إنْ خانَكَ التوفيقُ، نلتَ جزاءك في الحال، أنت ومَدعوّوك، هؤلاء الذين ملأتَ بهم غُرفات بيتك!

التقت الأبصار عند شفتي المضيف. بدا جليّاً، خلال لحظات الصمت، أنّ أرواحهم قد تعلّقتْ بشفتيه. فتح فمه. لاكَ لسانَه. وفي تلك اللحظة، كانت تتسلّل إلى أسماعهم من الساحة أهزوجةٌ تقول:

نحنا رْجـــالِكْ يا سُلْطَهْ      نضـــربْ بالنارْ والبَلْطَهْ

واللي مـــا نصَلْ ليـــهُمْ      م الخـوفْ يموتوا بالجَلْطَهْ!

وإذْ أُتِمّتْ الأُهزوجة، سقط صاحبُ البيت، الأبكم، على الأرض مجلوطًا!

وجّه العسكريّ بندقيته نحوهم. نَحَبَت النساء، وتوسّل الرجال. فنحّى إصبَعه عن الزِّناد:

ـ سأمنحكم فرصةً أخرى. ليخرجْ منكم مَنْ يتكلّم بدلاً عنه. أنت، أيُّها المُفَوَّه الطليق اللسان، قفْ فيهم خطيبًا.

وقف الفصيح. ومن جديد اغتصب وجهُه تلك البسمة:

ـ في الحقيقة، أيُّها المواطنون... إنّ التمرّد لأمرٌ بشع تمُجّه النفوسُ المحبّةُ للوطن، الوفيّةُ للحاكمين. إنّ ما اقترفه ذلك الإرهابيّ في الساحة شيءٌ يتجاوز فظاعة الإرهاب إلى الخيانة العظمى، إذ كيف يمكن عاقلاً بشريّاً أن يفكّر في اغتيال الحفيد الأثير عند زعيمنا العظيم! هذا تآمرٌ سافرٌ من قبل الإمبريالية والشعوبية والديماغوجية، يستحقّ أصحابُه، ومن هم وراءهم وأمامهم وفوقهم وتحتهم، العذابَ الأليم. أما عن ردّة الفعل الفورية، التي جادت بها قريحةُ المحافظين على الأمن، تجاه الإرهابيين وأهليهم، فإنّها تصرُّفٌ حكيم تتمثّل فيه روحُ العدالة... لأنّه... لأنّ مِنْ صلب هؤلاء خرج الإرهابيون... ومن صُلْب الإرهابيين يخرج الأطفال!

أشرق، في العيون، الأملُ في النجاة، وخفقت الأيدي المرتعشةُ بالتصفيق.

سألهم العسكري، والبندقيةُ في يده لم تُنكِّس فُوَّهَتَها:

ـ هل ترون أنّ ما قاله خطيبُكم صحيح؟

أجابوا بصوتٍ واحد:

ـ صحيح، صحيح، صحيح.

ـ وتؤمنون بكلّ كلمة وردتْ على لسانه؟

ـ نعم، نعم، نعم.

ـ إنْ كنتم تذكبون، فأنتم تستحقّون عقابَ المنافقين. فإنْ كنتم صادقين، فكيف سمحتم بأن يَخْرج من أصلابكم أولئك الخونة؟ خذوا، أيُّها المارقون من دين الوطنية!

وفي الشوارع المتفرِّعة عن الساحة، كانوا قد استوقفوا نفرًا من الناجين بأرواحهم، ونظّموهم في مواكب هزيلة، وأخذوا يطوفون بهم، وقد حمّلوهم الرايات وأرغموهم على ترديد هتافاتهم وأهازيجهم.

تقول الحكاية إنّ رجالهم، في الساحة هناك، كانوا يهتفون بفرح:

العـهـدْ البـائدْ دَمَّـرْناهْ      ونحن الوطنْ عَـمَّـرْناهْ

عـيونْ الدهرْ بُكْرَهْ تْشـوفْ      وتشـهـدْ ع اللي أَنْجَـزْناهْ!

**حلب**